المحاضرة الثانية والعشرون

وَإِيَّاكَ وَالْإِعْجَابَ بِنَفْسِكَ وَالثِّقَةَ بِمَا يُعْجِبُكَ مِنْهَا وَحُبَّ الْإِطْرَاءِ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَوْثَقِ فُرَصِ الشَّيْطَانِ فِي نَفْسِهِ لِيَمْحَقَ مَا يَكُونُ مِنْ إِحْسَانِ الْمُحْسِنِينَ وَإِيَّاكَ وَالْمَنَّ عَلَى رَعِيَّتِكَ بِإِحْسَانِكَ أَوِ التَّزَيُّدَ فِيمَا كَانَ مِنْ فِعْلِكَ أَوْ أَنْ تَعِدَهُمْ فَتُتْبِعَ مَوْعِدَكَ بِخُلْفِكَ فَإِنَّ الْمَنَّ يُبْطِلُ الْإِحْسَانَ وَالتَّزَيُّدَ يَذْهَبُ بِنُورِ الْحَقِّ وَالْخُلْفَ يُوجِبُ الْمَقْتَ عِنْدَ اللَّهِ وَالنَّاسِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ .

معاني المفردات:

١ـ الإطراء: المدح والإفراط فيه

٢ـ مَحَقَ الشيء: أزاله

٣ـ التزيَد: الزيادة، أي احتساب العمل أزيد مما يكون

٤ـ المقت: البغض والسخط

شرح النص

(وَإِيَّاكَ وَالْإِعْجَابَ بِنَفْسِكَ، وَالثِّقَةَ بِمَا يُعْجِبُكَ مِنْهَا، وَحُبَّ الْإِطْرَاءِ، فَإِنَّ ذٰلِكَ مِنْ أَوْثَقِ فُرَصِ الشَّيْطَانِ فِي نَفْسِهِ، لِيَمْحَقَ مَا يَكُونُ مِنْ إِحْسَانِ الْمُحْسِنِينَ) أحذرك يا مالك من أن تعجب بنفسك وتُحسن الظن بها أنَّ ما عملته حسن، وأحذرك من أن تثق بالعمل الذي يسبب أن تعجب بنفسك لأنها أدت مثل ذلك العمل، والاطراء كثرة المدح، فأحذرك من حبه، فإنَّ ما تقدم من الرذائل هي أفضل فرصة للشيطان التي تسبب هلاك الإنسان ليبطل الشيطان ما كان من عمل المحسنين، فمن أعجب بنفسه بطل عمله، وكذلك من أحب الإطراء على عمله دل على أنَّ هذا العمل ليس لله تعالى وإنما للرياء وللسمعة.

فالإعجاب بالنفس من المهلكات لها، إذ يمنّ الإنسان بعمله على ربه فتطمح نفسه إلى الاستعلاء والاستكبار، إنه ينظر إلى نفسه فيتخيل أنها منزهة عن كل تقصير فيأخذه التيه ويتمنى أن تتحول ألسنة الناس كلها إلى أبواق تسبح بذكره وتمجّد أفعاله وأقواله ومن هذا الباب يستطيع أن يدخل الشيطان فيزين له سوء عمله فيراه حسناً، فتنقلب عنده الأوضاع وتتبدل الموازين فيتخيل أنَّ جميع أفعال الناس وأعمالهم وما قدموه من خيرات وصالحات كلها لا تعدل عملاً من أعماله وأثراً من آثاره وبذلك تمحق آثار الصالحين وتذوب كل أعمالهم الطيبة وجهادهم الميمون، وهذا أمر له ما بعده من الفساد والضلال .

في الحديث عن عبد الرحمن بن الحجاج قال: قلت لأبي عبد الله ع: الرجل يعمل العمل وهو خائف مشفق ثم يعمل شيئاً من البر فيدخله شبه العجب به؟ فقال: هو في حاله الأولى وهو خائف أحسن حالاً منه في حال عجبه.

وفي الحديث عن أبي عبد الله (ع) قال: أتى عالم عابداً فقال له : كيف صلاتك؟ فقال: مثلي يسأل عن صلاته؟ وأنا أعبد الله منذ كذا وكذا، قال: فكيف بكاؤك؟ قال: أبكي حتى تجري دموعي، فقال له العالم: فإنَّ ضحكك وأنت خائف أفضل من بكائك وأنت مدلّ، إنَّ المدل لا يصعد من عمله شيء .

الشارح الكبير الشيخ محمد جواد مغنية قدس سره: تعوّذْ مِن نَفْسِك كما تَتعوّذ مِن الشَّيْطَان، ومَتى أَعْجَبك شَيء مِنْهَا فاعْلم إنَّكَ وَقَعتَ فِي حَبَائِله، ومَن أَظْهَر فَضله لِلنَّاس مَقَتُوه وذَمُّوه، كَان لهُ أَهلا.

(وَإِيَّاكَ وَالْمَنَّ عَلَى رَعِيَّتِكَ بِإِحْسَانِكَ، أَوِ التَّزَيُّدَ فِيمَا كَانَ مِنْ فِعْلِكَ، أَوْ أَنْ تَعِدَهُمْ فَتُتْبِعَ مَوْعِدَكَ بِخُلْفِكَ) أحذرك من أن تمن على رعيتك بما أحسنت لهم، أو تظهر الزيادة فيما كان من فعلك بأن تريد إظهار فوق ما عملتَ حقيقةً، أو أن تعدهم بأن تعطيهم موعداً ثم تخلفه، ورد في نهج البلاغة أنَّ أمير المؤمنين ع قال: المَسؤُولُ حُرٌّ حَتَّى يَعِد.

(فَإِنَّ الْمَنَّ يُبْطِلُ الْإِحْسَانَ، وَالتَّزَيُّدَ يَذْهَبُ بِنُورِ الْحَقِّ، وَالخُلْفَ يُوجِبُ الْمَقْتَ عِنْدَ اللهِ وَالنَّاسِ، قَالَ اللهُ سبحانه: كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ)

فإنَّ المن يفسد العمل لما فيه من إيذاءٍ على الممنون عليه، وقد حرمه الله تعالى ومنع منه وجعل الصدقة فاسدة لا تعطي خيرها وثوابها إذا اقترنت بذلك قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى) ولأجل هذا قال الإمام في مقام التنديد بالمنّ على الرعية بقوله: فإنَّ المنَّ يبطل الإحسان.

وأما التزيد فهو قبيح لأنه يتضمن الكذب والكذب حرام، فإن العامل جزءاً واحداً ومدعٍ للعمل عشرة أجزاء مريداً الافتخار بهذه النسبة مثل هذا الإنسان سينكشف كذبه ويتضح حاله وتنزل منزلته عما هي عليه وبذلك قد يقضي حتى على الجزء الذي عمله وتنطمس معالمه من جراء كذبه ذاك ولذا قال الإمام في مقام عدم جواز التزيد بأنَّه يذهب بنور العشق الحق.

وأما خلف الوعد فإنه أوضح الثلاثة في القبح عند الناس حيث تنتزع الثقة ممن وعد ولم يفِ ولا يؤخذ بقوله بعد خلفه لوعده وكفى بذلك ذلاً وإهانة وأما عند الله فلقوله تعالى (كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) والآية عامة شاملة للوعد كما تشمل الأمر بالحسن والنهي عن القبيح.

قال الشاعر في عدم الوفاء بالوعد:

قَدْ طَالَ فِي الوَعْدِ الأَمَدْ وَالحُرُّ يُنجِزُ مَا وَعَدْ

وَوَعَدتَني يَومَ الخَمِيسْ فَلَا الخَمِيسُ وَلَا الأَحَدْ

الشيخ محمد جواد مغنية قدس سره: إذَا فَعَلت شَيْئَاً مِن الْخَيْر عَلِم بِهِ الجَمِيع، وعَادت إلَيْك ثِمَاره، وإذَنْ فَعَلاَم الإعلان والتَّبَجُح، والْمَنَّ؟ إنَّ الْمَنَّ سَيّئَة لا تَنْفَع مَعْهُ حَسَنَة، وإنْ اضطَرَرت ودَعَتك الْحَاجَة إلى التَّنويه بِمَا فَعلت فَقُل الْحَقّ ولا تَرد عَلَيْهِ شَيْئًا، لأنَّ الزِّيَادَة الكَاذِبَة تُفْسد مَا أصْلَحت، وتَهْدم مَا بَنِيت.